مجلة علم النفس

مجلد ٢ | فبراير ١٩٤٧ | عدد ٣

الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى*

بقلم الدكتور يوسف مراد

كل عصر من العصور يمتاز فى تفكيره بطابع خاص ويتجه اتجاهاً بارزاً تصطبغ بصبغته الاتجاهات الأخرى التى تكوّن فى مجموعها الثقافة السائدة فى وقت من الأوقات . ولا بد من أن ننظر إلى عصرنا هذا نظرة شاملة واسعة لكى نكشف عما يتميز به من طابع قوى أصيل . فاذا استعرضنا مختلف نواحى النشاط الإنسانى فان أول ظاهرة تسترعى انتباهنا هى بدون شك اضمحلال الفن الخالص وفقر الإنتاج الأدبى كأن معين الوحى قد جفت مياهه أو — وهو الأصح — كأن قلب الفنان أو الأديب قد فقد القدرة على تلقى الوحى من ينبوعه قبل أن يشوّه ويكتنفه الظلام . وإذا كان الفن أو الأدب أمسى فى المرتبة الثانية هل معنى هذا أن الصدارة أصبحت للعلم ، وأقصد هنا بالعلم معناه الاصطلاحى أى العلوم الطبيعية خاصة ، تلك العلوم التى جندت فى سبيل تقدمها آلاف الباحثين فى معامل الفيزياء والكيمياء . يجب أن نتريث قليلا قبل الإجابة عن هذا السؤال . إن النتائج التى وصل إليها العلم باهرة حقاً ، والإنسانية فى مجموعها لا تزال كالطفل الذى يتوق إلى كل ما يثير فى نفسه الدهشة والتعظيم . هل يجوز لأحد أن يشك فى سيطرة العلم على مدنيتنا الحاضرة وقد غمرتنا من كل صوب ثمار التفكير العلمى فقهرنا الزمن أوكدنا ، وسخرنا المكان وحطمنا

* محاضرة ألقيت فى دار السلام بالقاهرة يوم الثلاثاء ١٧ ديسمبر ١٩٤٦

حدوده ، ثم نفذنا إلى مكمن الطاقة فحررناها من قيودها وأطلقناها من حصنها المنيع بتحطيم الذرة وتغيير بنائها ؟ كل هذا صحيح ولكن يبدو أن صيحة الفرح التى استقبلت انتصار العلم على الطبيعة المادية قد ازدادت عنفاً وقوة حتى تحولت إلى تشنجات أشبه ما تكون بصرخة الرعب والفزع . وعلى هذه الصرخة التى غمرت أصداؤها أنحاء الأرض وأرجاء السماء أفاق العلماء من عزلتهم ولأول مرة فى تاريخ الفكر تساءلوا عن قيمة اكتشافاتهم من الوجهة الإنسانية وحاولوا أن يزنوها بغير ميزان المعرفة البحتة . إنه لأمر عجيب حقاً أن نسمع عن عالم يتردد قبل نشر بحوثه متسائلا عما عساه أن تؤدى إليه هذه البحوث من سعادة أو تعاسة لإخوانه من بنى البشر . إن فى هذا الأمر الأخير الدليل القاطع على أن العلم البحت لم تعد له الصدارة فى تقدير الناس له . وكذلك أخذ الناس يشكون فى قيمة التطبيقات القائمة على العلم البحت عند ما ينظرون إلى البون الشاسع الذى يفصل بين ما كان يرجى من هذه التطبيقات وبين ما حققته فعلا من طمأنينة وراحة وسعادة ، كأن تطبيقات العلم تجاوزت أغراضها فأصبحت حملا ثقيلا فاستعبدت الإنسان بدلا من أن تمنحه الحرية التى كانت تعده بها .

أعتقد أننى لا أقول بدعة إذا قررت أن العلم أيضاً فى وقتنا هذا فقد مركز الصدارة ليفسح المجال لاهتمام آخر أخذ يزداد ويبرز بشىء من العنف والإصرار . وهذا الاهتمام المسيطر الآن على العقول ينحصر فى نقطة مركزية واحدة هى المشكلة الاجتماعية . ومن المعلوم أن الشعور بخطورة مشكلة من المشاكل لا يزداد إلا بقدر ازدياد تعقد هذه المشكلة واضطراب نواحيها . وفى الوقت الحاضر ، فى الأقطار التى عانت ولا تزال تعانى من آثار الحرب الأخيرة ، لا شك فى أن المشكلات الاجتماعية وصلت إلى أقصى درجة من العنف والاضطراب كأن الإنسانية أصبحت فى مأزق يتعذر الخروج منه . وليست الحرب فى مختلف مظاهرها — حرب الأسلحة أو حرب الأعصاب أو حرب الكلام — ليست الحرب سوى عرض من أعراض الأمراض الاجتماعية التى تشكو منها الإنسانية . وفى ضوء هذا الاهتمام الوحيد أخذ الفنان والأديب كما أخذ العالم يعيد كل منهم النظر فى طبيعة رسالته وأغراض مجهوده متسائلا عن وظيفة الفن أو الأدب أو العلم لا من الناحية البحتة المستقلة ، بل من الناحية الاجتماعية ومن حيث ارتباط آثار الفن والأدب والعلم بالحياة الاجتماعية كنظام موحد لا يتجزأ . وذلك لأن الإنسان الذى يتوق إلى تحقيق إنسانيته كاملة لا يمكن أن يحيا

حياة اجتماعية منسجمة متكاملة إلا من حيث هو نظام موحد لا يتجزأ .

* * *

تلك هى الاعتبارات التى كانت تجول فى خاطرى عند ما طلب منى أن أعين موضوعاً لمحاضرة هذا المساء . وقد دهشت فى بادىء الأمر عند ما اتجه ذهنى نحو الموضوعات الاجتماعية وها هى موضوعات علم النفس على اختلاف أنواعها تقدم لى مادة غزيرة للعرض والتحدث . ولكن هذه الدهشة لم تدم طويلا إذ من السهل أن يتبين المرء أنه قلما يوجد موضوع فى علم النفس لا ينتهى فيه الباحث إلى اعتبارات اجتماعية ، بل يقف فيه الباحث على الدور الكبير الذى تقوم به العوامل الاجتماعية فى أثناء تكوين الوظائف السيكولوجية ونموها . كما أنه قلما يوجد موضوع فى العلوم الاجتماعية لا يؤدى بالباحث إلى كشف جذوره السيكولوجية . وليس مما يدعو الآن إلى ذكر عشرات المولفات الحديثة التى تعرض للصلات الوثيقة التى تربط بين علم النفس وسائر العلوم الاجتماعية ؛ وحسبى أن أذكر هنا أن المنهج التكاملى الذى أخذ به أعضاء جماعة علم النفس التكاملى فى مصر يضع كأساس أوّلى لدراسة طبيعة الإنسان عدم الفصل بين النواحى البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية . وبما أنه توجد أوجه شبه عديدة بين الكائن الحى والمجتمع فلا بد أن يوجد هناك مجال لتطبيق معنى التكامل فى الحياة الاجتماعية كما هو يطبق فى المجالين البيولوجى والسيكولوجى ولكن مع مراعاة الخصائص التى يمتاز بها النظام الاجتماعى دون غيره من الأنظمة الحية والنفسية . فالتكامل الاجتماعى إذن هو موضوع هذا الحديث ولكن أريد أن أصرح فى بادىء الأمر أننى سأقتصر على تعريف التكامل الاجتماعى وبيان بعض شروط تحقيقه بصورة تخطيطية عامة ، مقتصراً على أهم الشروط السيكولوجية . فان فى مثل هذا الموضوع المعقد يجب أن نضمن أولا متانة الأساس الذى ستقام عليه نظرية النظام الاجتماعى وبما أن الحياة النفسية لا يمكن أن تدرك فى حقيقتها إلا بالاستناد إلى معرفة الطبيعة الإنسانية من الوجهة البيولوجية ، فكذلك لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية إلا فى ضوء معرفة العوامل النفسية التى تعين مظاهرها الأساسية .

* * *

يجدر بنا فى بادىء الأمر أن نحدد بقدر الإمكان مفهوم الألفاظ التى سيدور عليها البحث وأن نعرف (١) التكامل (٢) الاجتماعى (٣) السيكولوجى .

(١) التكامل : لا يمكن التحدث عن التكامل إلا فى مجال الكائن الحى أو

ما هو شبيه بالكائن الحى ، أى بصدد نظام يقوم على تنسيق مقومات جزئية أو على تآزر أعضاء لتأدية مجموعة من الأفعال ترمى إلى حفظ هذا النظام وتنميته وفقاً لنموذج معين . فمعنى التكامل يتضمن معان مختلفة منها الأجزاء ثم الصلة بين الأجزاء ثم الصلة المنظمة بين الأجزاء ثم التنظيم الديناميكى وأخيراً تأدية وظائف وفقاً لنموذج معين . وأعتقد أن النقطة الأخيرة (وهى تأدية وظائف وتحقيق غرض) هى النقطة الأساسية التى تميز التكامل عن سواه من أنواع التنظيم . وستختلف أنواع التكامل باختلاف المقومات التى تتكامل داخل النظام الكلى فيكون لدينا التكامل البيولوجى والتكامل السيكولوجى والتكامل الاجتماعى .

يمكننا أن نشير هنا إلى أن أوجه الاختلاف بين عمليات التكامل فى هذه المجالات الثلاثة ستنحصر خاصة فى طبيعة العوامل التى تحقق التكامل كما أن محاولة تحديد الغاية التى تؤدى إليها هذه العمليات ستزداد صعوبة كلما ابتعدنا عن القطب البيولوجى واقتربنا من القطب الاجتماعى .

(٢) ما هو المقصود بالاجتماعى ؟ للإجابة على هذا السؤال يجب أن نذكر أولا أن طبيعة الصلة التى تربط بين أفراد جماعة هى التى تعين طبيعة الجماعة نفسها . فقد تتفاوت الصلات فى قوتها كما تتفاوت فى بقائها واستمرارها . فهناك جماعات مؤقتة عابرة ، ضعيفة التنظيم لا تترك استجابات أفرادها بعضهم لبعض آثاراً عميقة ، جماعات تتكون بسرعة وتنحل بسرعة وذلك لاضمحلال الغرض الذى ترمى إليه وتلاشيه بعد فترة من الوقت . وعلى العكس من ذلك توجد جماعات قوية التنظيم تقاوم عوامل التشتيت والانحلال وذلك لتعدد الصلات التى تربط بين أفرادها وتنظيمها حول غرض واضح أصيل ينبعث من جوانب الجماعة ذاتها ، غير مفروض عليها من الخارج . وفى مختلف هذه الجماعات ، مهما اختلفت درجة تماسكها وبقائها ، فان العامل المشترك بينها هو اتصال أشخاص بعضهم ببعض وتبادل التأثير بينهم . وعلى ذلك يمكن تعريف علم الاجتماع دراسة العمليات والوسائل التى بواسطتها تتصل الأشخاص والجماعات بعضها ببعض . ولا يهتم علم الاجتماع بالاشخاص من حيث هم أفراد أو كائنات حية بل من حيث هم كائنات بشرية تشترك فى تجارب وخبرات واحدة وتكتسب عادات الجماعة أو الجماعات المختلفة التى قد تنتمى إليها إما بصورة مستديمة أو بصورة متقطعة . وبقدر اندماج الشخص فى جماعة ما وتعاونه مع الآخرين فى تحقيق غرض الجماعة تتعين درجة التكامل الذى يحققه هذا الشخص مع سائر شركائه

وسوف نرى أن هناك صوراً متنوعة للتكامل الاجتماعى ، ترجع إلى أن فى اختيار الشخص إلى حد بعيد الاندماج فى مجتمع أو الانفصال عنه . ولكن مع تعدد هذه الصور يوجد لها أساس واحد مشترك يرجع إلى قدرة الشخص على التكامل إطلاقاً ، وهذا الأساس هو فى صميمه أساس نفسى يتوقف فى نهاية الأمر على مدى تكامل شخصية كل شخص من الوجهة السيكولوجية .

(٣) ما هو المقصود بالسيكولوجى ؟ — يلاحظ أننا تدرجنا من الاجتماعى إلى السيكولوجى وعند ما نتجه هذا الاتجاه نرى أن تعريف السيكولوجى أو تحديده أكثر صعوبة من لو أننا صعدنا من البيولوجى إلى السيكولوجى . فى هذه الحالة الأخيرة يكون التمييز سهلا بين الوظيفة الحية والوظيفة النفسية . فالاستجابة الحية هى دائماً استجابة لمنبه من حيث هو عامل فيزيائى أو كيميائى ، فى حين تكون الاستجابة النفسية لمنبه ما من حيث هو رمز أو دلالة أو بعبارة أخرى عند ما تشمل الاستجابة عنصر التعلم والاكتساب . ولهذه النظرة نتائج هامة منها أنها تضع مشكلة الصلة بين الفطرى والمكتسب وضعاً جديداً . فالسيكولوجى يبدأ عند ما تتدخل عوامل التعلم وهذا ينطبق بوضوح على العمليات العقلية التى نسمها عادة بالعليا — مع العلم بأن القدرة على التعلم أمر فطرى غير مكتسب — كما أنه ينطبق على أشد الوظائف صلة بالتركيب الفسيولوجى وأقصد بالذات الانفعال . فالانفعال من حيث هو عملية نفسية أمر مكتسب ، أى من حيث هو أداة تعبير وتأثير فى البيئة الخارجية . ولهذه النقطة أهمية كبرى لفهم الأثر البليغ الذى تقوم به العوامل الانفعالية فى تكامل الشخصية .

فالاستجابة للرمز أو الدلالة هى إذن ما يميز السيكولوجى عن البيولوجى . أما إذا أردنا إقامة التمييز بين السيكولوجى والاجتماعى فالأمر عسير جداً لإن كل استجابة اجتماعية هى استجابة موجهة نحو شخص أو نحو مجموعة من الأشخاص ؛ فهى فى صميمها استجابة سيكولوجية . ومن جهة أخرى فان عوامل التعلم التى تؤدى الدور الرئيسى فى النمو السيكولوجى قلما تكون منفصلة أو مستقلة عن العامل الاجتماعى . فالنمو النفسى لا يمكن أن يتم إلا فى كنف المجتمع ولا يمكن أن يتم تنظيم الدوافع الفطرية وتعديلها وتهذيبها إلا بتأثير العوامل الاجتماعية . فالنمو النفسى إذا نظرنا إليه من الخارج هو عملية تكوين الذات الاجتماعية فى الطفل والمراهق ، وبالتالى نمو قدرته على التوافق الاجتماعى وهذا هو موضوع علم النفس الاجتماعى . أما فى نظر علم النفس العام فدراسة النمو النفسى قاصرة على معرفة كيفية تنشيط الوظائف النفسية

وكيفية عملها سواء كانت المنبهات عوامل اجتماعية كالأشخاص والجماعات أو مجرد أشياء غير مشخصة . فعلم النفس العام أكثر تجريداً من علم النفس الاجتماعى ولكنه يستند فى محاولته سن قوانين عامة إلى الدراسات التى يقدمها لنا علم النفس الاجتماعى والواقع إذا تصفحنا كتاباً فى علم النفس العام فاننا نجد أن الدراسات التى تتناول موضوعات الانفعال والعاطفة والتعلم واكتساب اللغة والتفكير والإرادة والشخصية هى فى صميمها دراسات نفسية اجتماعية . أما الموضوعات الأخرى كالإحساسات والإدراك فانها أقرب إلى علم النفس الفسيولوجى منها إلى علم النفس العام : فان السيكولوجى البحت ينحصر فى دراسة القدرات النفسية التى تعين الطبيعة البشرية فى جوهرها . أما عند ما تأخذ هذه القدرات بالتنشيط فاننا نرى العوامل الفسيولوجية من جهة والعوامل الاجتماعية من جهة أخرى تقتحم الميدان لتسمح لهذه القدرات بأن تعمل وبأن تعبر عن نفسها .

نخلص من كل ما سبق إلى أن الأسس السيكولوجية للتكامل الاجتماعى لا بد أن تبحث أولا فى دائرة القدرات الطبيعية أو الميول أو النزعات الفطرية وهذا ما سنبينه بعد أن نزيد موضوع التكامل توضيحاً وتفصيلا .

لا شك فى أن الكائن الحى يكوِّن نظاماً متكاملا أى أنه وحدة أو نظام يعمل بكليته بحيث يتحقق الانسجام بين جميع أعضائه . فكل وظيفة خاضعة فى عملها لنظام الكل ترمى إلى الاحتفاظ بتوازنه ، كما أن مجموعة الوظائف تعمل متعاونة لتحقيق هذا التوازن .

وبما أن الكائن الحى هو عبارة عن بيئة داخلية متصلة عن طريق أعضاء الحس ببيئة خارجية ، فسيكون لترابط الوظائف وتماسكها ، أو بعبارة أخرى لتكاملها ، وجهان : وجه داخلى خاص بالبيئة الداخلية الكيميائية ووجه خارجى خاص بتكيف الكائن الحى مع البيئة الخارجية . ولتكامل الكائن الحى عاملان أولهما الجهاز الدورى المتشعب فى جميع أنحاء الجسم وما ينصب فى الدورة الدموية من إفرازات الغدد الصم . أما العامل الثانى وهو الذى يحقق تكيف الكائن الحى مع الخارج فهو الجهاز العصبى الدماغى الشوكى الذى يصل بين التنبيهات الحسية والاستجابات الحركية التى تقوم بها العضلات المخططة . وهناك عامل ثالث يصل بين الجهاز الدورى والجهاز العصبى الحسى الحركى هو الجهاز السمبتاوى الذى يشرف على النمو وعلى الحساسية الحشوية . فعند ما تعمل هذه العوامل بنظام وانسجام محققة من جهة ثبات البيئة الداخلية

ومن جهة أخرى التكيف الخارجى بتثبيت المنبهات الخارجية بقدر الإمكان وما تثيره من استجابات يقال عن الكائن الحى إنه فى حالة تكامل وإن نشاطه متكامل . أما عدم التكامل ، أو بعبارة أخرى التفكك ، فانه يحدث عند ما تتحرر وظيفة من الوظائف من النظام الكلى وتعمل منحرفة أو بأن يقل نشاطها أو يزيد أو بأن تعمل مستقلة مسيطرة كما فى حالة تكاثر الخلايا السرطانية . أما التكامل السيكولوجى فيمكن تعريفه بأنه تنظيم الدوافع والعادات والأفكار والسمات الخلقية وسائر مقومات الشخصية بحيث تكوِّن وحدة ديناميكية متماسكة الجوانب مركزة بقدر الإمكان حول الذات الشاعرة . والمقصود هنا بالديناميكى أن هذا النظام الموحد لا يمكن الوقوف عليه وتحديده إلا عن طريق أساليب الاستجابات الصادرة عنه . وإذا أردنا أن نبحث عن العامل الرئيسى للتكامل السيكولوجى فلا بد أن يكون عامل ثبات وترابط كما هو شأن عوامل التكامل البيولوجى التى تحقق ثبات البيئة الداخلية وثبات الاستجابات الخارجية فى دائرة لا يمكن تجاوزها وإلا أدى التفاوت الكبير بين تغيير البيئة الخارجية وقدرات الكائن الحى البيولوجية إلى الهلاك .

وعامل الثبات والترابط الذى يحقق توحيد جميع مقومات الشخصية هو بلا نزاع الذاكرة أو القدرة على تركيز خبرات الشخص فى الذات الشاعرة وربط هذه الخبرات فى الزمان .

وبما أن الإنسان لا يعيش فى لحظته الحاضرة بل تكون كل خبرة راهنة بمثابة امتداد للماضى وإعداد للمستقبل فالشخصية المتكاملة أو بعبارة أصح الساعية نحو التكامل — إذ أن التكامل توازن يجب أن يتحقق فى كل لحظة — هى التى تنتظم فيها ما هو عليه الإنسان فى لحظة ما وما سيكون عليه فى المستقبل القريب أو البعيد .

وأريد أن ألح على أن الشخصية المتكاملة أمر مثالى وأن ما نشاهده هو السعى نحو تحقيق التكامل ، أى السعى نحو تحقيق هذا التوازن غير الثابت الذى لا يثبت إلا بقدر ما يقاوم كل ما يهدده من عوامل الانحراف والتفكك والانحلال . هذا ما يشير إليه المنهج التكاملى عند ما يقرر أن كل نمو أو كل تقدم لا يتم إلا بفضل كذا.. وعلى الرغم منه كأن نقول مثلا إن الجديد لا يتم إلا بفضل القديم وعلى الرغم منه أو أن الصحة لا تتم إلا بفضل المرض وعلى الرغم منه .

ربما يكون هذا الأمر أوضح فى المجال البيولوجى عنه فى المجال السيكولوجى ، ولكن مما لا شك فيه أن معنى الصراع أو معنى اشتراك المتقابلين فى سلوك ما من المعانى

الأسلسية التى تسمح لنا بكشف اللثام من أسرار الحياة فى مظهريها البيولوجى والسيكولوجى .

وقبل أن نبحث عن عامل التكامل الاجتماعى أريد أن أشير هنا إلى الخصائص العامة التى يتصف بها السلوك المتكامل كما سبق أن وضحنا . فالخاصة الأولى هى أن كل سلوك فى جميع الكائنات الحية هو سلوك وظيفى أى أنه يرمى إلى إزالة التنبيه أو إلى خفض التوتر الذى أثار السلوك . والخاصية الثانية هى أن كل سلوك يتضمن صراعاً أو اشتراك النقيضين وبحوث مدرسة التحليل النفسى قد ألقت ضوءاً جديداً على الدوافع اللاشعورية أو المكبوتة ليس الآن مجال توضيحها .

أما الخاصية الثالثة فهى أن السلوك لا يمكن فهمه على حقيقته إلا إذا ربطنا بينه وبين المجال الذى يحدث فيه . وغنى عن القول إن مدرسة الجشطلت أبرزت بوضوح أهمية المجال أو الإطار لفهم أى مظهر من مظاهر السلوك . ومعنى المجال شبيه بمعنى البيئة غير أنه يشير خاصة إلى كيفية تنظيم هذه البيئة وأثر هذا التنظيم فى السلوك .

أما الخاصية الرابعة فهى نتيجة الخصائص الثلاث التى ذكرنا وهى أن الكائن الحى ينزع على الدوام إلى المحافظة على أقصى درجة من التماسك الداخلى أو من التكامل وهذا يذكرنا بقول الفيلسوف سبينوزا عند ما يقرر أن كل كائن ينزع إلى الاستمرار فى كينونته أو إلى المحافظة على كيانه .

جميع هذه الخصائص تزداد وضوحاً إذا انتقلنا إلى النظر فى التكامل الاجتماعى . فالشخص فى المجتمع يؤدى مجموعة من الوظائف وهو لا ينفك يواجه ألواناً من الصراع بين نزعاته الشخصية وما يفرضه المجتمع من أوضاع ومعايير . ثم أن السلوك الاجتماعى يحدث بحكم الواقع فى مجال اجتماعى بل ينتقل من مجال إلى مجال ، وقد تضيق المجالات أو تتسع أو تتغير خصائصها بحيث يضطر الشخص على الدوام إلى بذل المجهود لتحقيق التوافق الذى سيصون كيانه الفردى والاجتماعى . وأخيراً كل شخص فى مجتمع ينزع بطبعه — إن لم يكن منحرفاً — إلى توثيق العرى بينه وبين الأشخاص الآخرين على أساس من التفاهم والانسجام .

وما ذكرنا الآن عن التفاهم والانسجام يمهد لنا السبيل إلى كشف عامل الثبات الذى يحقق التكامل الاجتماعى . وهذا العامل هو بدون شك اللغة ، اللغة ذات المفاهيم الثابتة إلى حد كبير والتى تقوم بين المتكلمين بها بالدور عينه الذى تقوم به العملة فى المعاملات التجارية .

ولكن لا تؤدى العملة وظيفتها إلا إذا كانت سليمة غير مزيفة . ولكن شتان ما بين عملة الورق والفضة وعملة الكلام ، وما أكثر التزييف الذى يصيب ألفاظ اللغة فى حديثنا اليومى . ربما تذكرون الآن حديث لقمان الحكيم عند ما قرر أن اللسان هو أحسن شىء وأسوء شىء قد يساهم فى الخير أو ينشر الفساد . الواقع أن التكامل الاجتماعى أمر أصعب تحقيقاً من التكاملين البيولوجى والسيكولوجى ، وإن كانت القدرة على التعبير بوجه عام من خصائص الإنسان — فان التعبير اللغوى وظيفة مكتسبة فهى خاضعة فى تكوينها لظروف اكتسابها ثم ككل أمر مكتسب هى قابلة لكى تصبح آلية فضلا عن كونها أداة للتصنع والادعاء والكذب . ولكن لا تزال اللغة فى الظاهر العامل الاجتماعى للتكامل الاجتماعى ولا بد أن يتم هذا التكامل بفضل اللغة وعلى الرغم منها . ولكنه عامل ناقص ولهذا السبب أشرت فى بدء هذه المحاضرة إلى أنى سأتحدث عن الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى . يجب إذن أن نبحث فى ما وراء الألفاظ وأن ننفذ إلى الدوافع الدفينة التى تحرك سلوك الشخص لكى نقف على الشروط التى يجب أن تخضع لها اللغة لكى تصبح الوسيلة الناجحة لتحقيق التكامل الاجتماعى . فدراسة هذا الموضوع تعود بنا إلى تحليل الدافع الفطرى الرئيسى أو الدوافع الفطرية التى تقوم على أساسها الحياة الاجتماعية ودراسة الظروف التى تؤثر شتى التأثيرات فى تنشيط هذه الدوافع وتوجيهها وتعديلها .

لسنا فى حاجة إلى عناء كثير لكى نتبين المشقة التى يعانيها الباحث عند ما يريد تحديد ما يجب أن يكون عليه التكامل فى المجالات الاجتماعية المختلفة التى ينتمى إليها الشخص كمجال الأسرة ومجال المدرسة ومجال المهنة ومجال الحب الجنسى الخ ... فقد يحقق الشخص شيئاً من التكامل فى أحد المجالات دون غيره أو على حساب مجال آخر . فقد يكون التكامل سطحياً لا يتطلب مجهوداً كبيراً كما فى حالة وجود الشخص فى جماعة غير مستديمة وقد يكون عميقاً يقتضى مساهمة إيجابية متواصلة فى تحقيق أغراض الجماعة وتذليل العقبات التى تحول دون التفاهم والانسجام وهذا النوع هو الذى ينطبق عليه معنى التكامل الجدير بهذه التسمية .

وقد درس بعض علماء النفس استجابات الأطفال بعضهم لبعض فى مواقف اجتماعية مختلفة كالدراسة أو اللعب أو القيام بمشروع مشترك فوصلوا إلى التمييز بين ضربين متقابلين من السلوك أحدهما هو السلوك المتكامل والثانى السلوك المسيطر . وقد

عرف أندرسن هذين النوعين من السلوك بما يأتى :

إن السلوك المتكامل هو ظاهرة من ظواهر النمو يستجيب الفرد بمقتضاه إلى الفوارق والاختلافات القائمة بين الأشخاص الآخرين . الشخص المتكامل هو الذى يلين للآخر ويكشف غرضاً مشتركاً خلال الاختلافات القائمة ، باذلا مجهوده بالاتفاق مع غيره ، أى أن ما يقوم بينه وبين الآخرين من إختلاف يؤدى به بالتعاون مع الآخرين إلى تعديل الوسائل والأغراض . فالسلوك المتكامل يمتاز بالتلقائية والمرونة والديناميكية والتغير .

أما السلوك المسيطر فهو طريقة فى الاستجابة للآخرين بمقاومة الاختلافات والتغير والنمو . فالشخص المسيطر شخص صارم متشبث لا يلين ، فلا يحاول خفض التوتر الناشىء عن الاختلافات بالبحث عن غرض مشترك خلال هذه الاختلافات ، بل على العكس من ذلك يزيد الصراع عنفاً والتوتر شدة بينه وبين معارضيه . فهو يبذل مجهوده ضد الاخرين ، سالكاً مسلك المقاومة على الدوام غير عابئ برغبات الآخرين فهو يلجأ إلى الأمر والنهى تارة أو إلى التهديد تارة أخرى ليصل إلى أغراضه التى لا تقبل فى نظره أى تعديل أو تغيير . فهو يهاجم موقف الآخرين وأوضاعهم ، مهدداً إياهم فى سلامتهم وطمأنينتهم .

والسيطرة لا تمتاز بالتلقائية والحرية الحقة ، وهى لا تقبل أن تلين كما أنها تحول دون النمو والتقدم ، وغرضها الرئيسى صيانة ذات المسيطر فهى تعبير عن الخوف الذى يسود المسيطر مما يهدده من تغيير فجائى يتوقع حدوثه اللحظة بعد الأخرى أو بعبارة وجيزة سلوك المسيطر هو سلوك شخص فقد الشعور بالأمان والطمأنينة .

يمكن أن نستنتج من هذه الفقرة الأخيرة التى تشير إلى أثر الخوف وعدم الأمان أن السلوك المسيطر قريب من السلوك العصابى كما فى حالات الحصر النفسى والمخاوف المرضية والأفكار المتسلطة والحصار والاندفاعات القهرية . والواقع أنه لا يوجد عصاب يخلو من عنصر الخوف على مختلف أشكاله : الخوف من فقدان حب الآخرين وتقديرهم ، الخوف من الاحتقار والعجز ، الخوف من العقاب المصاحب للشعور بالإثم والإدانة . ومن المعلوم أن سلوك العصابيين يمتاز بالأنانية الفائقة وبالاندفاع إلى الاعتداء أو على الأقل الشعور المرضى بهذا الاندفاع إلى إيذاء الآخرين أو إيذاء النفس لمعاقبتها على ما اقترفته من ذنوب ، سواء كانت هذه الذنوب واقعية أو من نسيج خيال المريض أو مما كان يتوهمه أثناء الطفولة . لا شك فى أن هناك درجات

متفاوتة من السلوك المسيطر أو السلوك الاعتدائى . ولكن لا يقتصر عدم التكامل على صورة الاعتداء على الآخرين . فقد يتخذ أحياناً — فى الظاهر على الأقل — صورة النكوص والتقهقر والانطواء على النفس مما يؤدى إلى حالات شبيهة بالحالات الفصامية أو الحالات السوداوية الاكتئابية . ففى مثل هذه الحالات يرفض الشخص الاشتراك مع الآخرين فينفصل عن الجماعة ويرتمى فى أحضان التأملات الذاتية والاجترارات الذهنية مستسلماً لأخيلة مرعبة مهولة . ولكن حتى فى هذه الحالات التى تبدو سلبية لا ينعدم فيها عنصر الاعتداء إذ أنه يكون موجهاً نحو الشخص ذاته . وقد يتخذ هذا الاعتداء ألواناً مختلفة كايذاء الشخص نفسه أو الامتناع عن الأكل أو الانتحار . وفى هذه الحالات يصل التفكك أو عدم التكامل إلى أقصى درجاته .

إذا كانت السيطرة التى وصفناها بعدم التكامل تنطوى دائماً على الاعتداء كرد فعل لحالة الخوف والقلق التى يكون عليها المسيطر فلا بد أن يكون السلوك الذى يقابل السيطرة وهو السلوك المتكامل القائم على التعاون والتفاهم والإيثار منطوياً على ما يقابل العدوان أى على الحب والتعاطف والمشاركة الوجدانية .

قد وصلنا الآن إلى حصر مشكلة التكامل الاجتماعى فى دائرتها السيكولوجية البحتة وذلك بتعيين الدوافع النفسية العميقة التى تحرك السلوك فى مختلف المواقف الاجتماعية من تكامل وسيطرة ونكوص أو كنشوب الحروب إذا نظرنا إلى مسلك الشعوب إزاء بعضها بعضاً . وبصدد هذه الدوافع النفسية العميقة تثار من حين إلى آخر مشكلة قديمة لا زالت تتجدد وتقفز إلى المرتبة الأولى فى تأملات علماء النفس والاجتماع كلما ظهرت نظرية جديدة تحاول تحديد الدوافع الفطرية التى تحرك السلوك والتى تقام عليها الأساليب السلوكية المكتسبة . وهذه المشكلة هى فطرية بعض الدوافع دون غيرها أو بعبارة أقرب إلى فهم غير المتخصصين ، هى مشكلة الغرائز . وأول نظرية حديثة يتجه إليها الفكر من النظريات التى لا تزال حية نظرية فرويد فى التحليل النفسى ، وما أدت إليه من محاولات فى تحديد طبيعة المجتمع وبيان الأساس النفسى الذى يقوم عليه . عالج فرويد هذا الموضوع فى كتابين حديثين ظهرا فى الطبعة الإنجليزية سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩ وعنوان الأول : مستقبل خداع The future of an illusion وعنوان الثانى المدنية وما تنطوى عليه من عدم الرضى Civilization and its Discontents . وقبل أن نعرض لرأى فرويد فى طبيعة المجتمع يجب أن نذكر أن التحليل النفسى بدأ كوسيلة لعلاج الأمراض النفسية وأن

النظرية الفرويدية فى اللاشعور والعقد أقيمت على تحليل المرضى . ثم عمم فرويد اكتشافاته وتأويلاته للصراعات التى كان يعانيها مرضاه وطبقها على الأسوياء وعلى الإنسانية كلها . وعند هذا أثيرت الاعتراضات وكانت عنيفة جداً من قبل علماء النفس الأكاديميين ؛ ولكن ، مما هو جدير بالذكر ، صدرت مثل هذه الاعتراضات من محللين نفسيين كانوا ينتمون إلى مدرسة فرويد أولا يزالون يعملون تحت لواء مدرسته ومن أهم المعارضين المحللين نذكر سوتى Suttie وكارين هورنى K. Horney ورنيرد وست Ranyard West . وسوتى فى كتابه « أصل الحب والبغض » (١٩٣٥) . وكارين هورنى فى كتابها طرق جديدة فى التحليل النفسى (١٩٣٩) ووست فى كتابيه : الضمير والمجتمع ١٩٤٢ وعلم النفس ونظام العالم ١٩٤٥ . وسأحاول فى الجزء الأخير من هذه المحاضرة تلخيص آراء فرويد وآراء معارضيه بعد بيان صلة هذه الآراء بموضوع التكامل الاجتماعى .

إن خلاصة ما ينتهى إليه فرويد فى نظرته إلى طبيعة المجتمع أن التكامل الاجتماعى أمر محال لايمكن تحقيقه وأن الغلبة فى نهاية الأمر للسيطرة والاعتداء وهلاك المجتمع بأيدى أفراده . وما يحققه الفرد من توافق ناقص مع الآخرين لا يتم إلا بكبت الميل إلى الاعتداء وبالاستلام إلى الخوف والقلق . وإذا تأملنا فى النجاح العظيم الذى أصابته نظرية فرويد فى الأوساط العلمية وغير العلمية تحتم علينا أن نمعن النظر فيما ذهب إليه فرويد فى ترجيح كفة السيطرة والاعتداء على كفة التكامل والتعاون .

يرى فرويد أن الطبيعة الإنسانية مفطورة على العداوة والبغض وأن دافع الاعتداء أو غريزة الاعتداء أقوى من الغريزة الجنسية وأعمق تأصلا فى طبيعة الإنسان . وقد سمى فرويد هذا الدافع بغريزة الموت والتدمير فى مقابل الغريزة الجنسية . ويجب أن نشير هنا إلى أن الغريزة الجنسية بعيدة كل البعد فى نظر فرويد عما يمكن تسميته بالغريزة الاجتماعية . ثم أن غريزة الموت أقوى من الغريزة الجنسية والغلبة فى نهاية الأمر مكتوبة للأولى .

إن رغبات المرء الصادرة من أعماق نفسه موجهة ضد المجتمع وضد شركائه فى المجتمع . كل فرد ، يقول فرويد ، هو فى الواقع عدو الثقافة والمدنية وليس الغرض من منشآت المدنية ومؤسساتها وما تسنه من قوانين إلا لحماية المدنية ضد الفرد . ويبدو أن المدنية لا يمكن أن تقام إلا على أساس من الضغط والردع وحرمان الغرائز مما قد

يرضيها . والمجتمع المتمدن لم يتم إلا عن طريق قيام أقلية تحكم استخدام أساليب القمع لمقاومة الأغلبية ولكى تفرض عليها نظامها . ثم يرى أن الجماهير تتصف بالكسل والبلاهة وأن أساليب الرفق والمحبة لا تجدى معها بل يجب اللجوء دائماً إلى القوة . ولكن هذه الأقلية المنتخبة بدورها تنوء تحت حمل ثقيل ناتج عن كبت النزعة إلى الاعتداء فيما بين أفراد هذه الأقلية المنتخبة . ولا يمكنها أن تصل إلى السعادة لما تعانيه من الشعور بالإثم والخطيئة . وبانتشار المدنية فى جميع أنحاء العالم يعم الشعور بالإثم جميع الأفراد وسيأتى يوم تنهار فيه جميع العقبات التى تحول دون انفجار غريزة الموت إلى أقصى درجات العنف فيؤول مصير المجتمع كله إلى الهلاك والفناء . والضمير الخلقى الذى قد يكون رادعاً للشهوة الجنسية أو للميل إلى الاعتداء هو بدوره نتيجة الخوف ويشوبه دائماً شعور بالإثم والإدانة . وما دامت عوامل تماسك المجتمع تنحصر فيما يفرضه المجتمع من الخارج فى الضمير القلق ، وما دام الإنسان مجرداً عن أى دافع اجتماعى فطرى فلا بد من أن ينتهى الصراع المحتدم بين المجتمع وأفراده بتغلب الدافع الفطرى الأصيل وهو الدافع إلى الاعتداء والتدمير أى بتغلب غريزة الموت .

تلك هى النظرة المتشائمة التى ينظر بها فرويد إلى المجتمع والمدنية . فهو لا يؤمن بالحب اللاجنسى وليس الإعلاء فى نظره إلا وسيلة لخفض التوتر الناشىء عن إعاقة الغريزة الجنسية أو غريزة الاعتداء . الواقع ، يقول فرويد ، أن الانسان ليس مخلوقاً عطوفاً ودوداً نازعاً إلى الحب ، يحاول فقط أن يدافع عن نفسه إذا اعتدى عليه ، بل أن فى تركيبه الغريزى تتأجج رغبات جامحة من العدوان والبغض . ليس الجار فى نظره شخصاً فد يكون معاوناً له أو موضوعاً جنسياً بل الفرصة السانحة لكى يرضى عدوانه ، لكى يستغله ولكى يعبث به جنسياً بدون رضاه ، لكى يسلب قهراً ما يمتلكه ، لكى يهينه ويعذبه ويقضى عليه فى آخر الأمر .

ربما يجوز لنا أن نلتمس فيما قاساه فرويد من اضطهاد ما يفسر لنا هذا الموقف الذى ينطوى على اليأس والتشاؤم فيما ينتظر الإنسانية . الواقع أن موقف فرويد من المجتمع هو موقف فلسفى أكثر منه علمى . إنه بحث واكتشف وأضاء لنا نواح عديدة من الطبيعة الإنسانية كانت لا تزال فى الظلام ، ولكنه ككل صاحب مذهب تجاوز حدود الواقع فى تأويلاته ، كما أنه عمم بدون حذر كاف مطبقاً بطريقة مطلقة ما كشفه فى مرضاه على الإنسانية أجمع .

وهذا الاعتراض الأخير على موقف فرويد له ما يسوغه فى آراء المحللين الذين عالجوا

حالات مرضية نفسية فى ضوء نظرية فرويد نفسه ، غير أنهم وصلوا إلى نتائج مخالفة لمؤسس التحليل النفسى فيما يختص بطبيعة الإنسان القصوى . فاننا نرى سوتى مثلا وهو طبيب محلل نفسى بدأ دراساته فى السلوك الاجتماعى منذ أكثر من ثلاثين سنة وعالج مئات من الحالات فى ضوء مبادىء التحليل النفسى نراه يصل إلى آراء تعارض آراء فرويد فيما يختص بالنظرية الجنسية وبنشأة المدنيـــة . يرى سوتى على عكس ما يراه فرويد وما ذهب إليه من قبل الفيلسوف هوبس أن الإنسان إجتماعى بطبعه وأنه مقصور على البحث على من يشاركه الحياة والتعلق به . وأنه لا توجد حالة طبيعية يكون فيها الإنسان لا اجتماعياً كما أن كل ما حققته الحياة الاجتماعية من منشآت ونظم لم يكتسب كله بمقاومة هذه الحالة الطبيعية السابقة عـــلى الحيـــاة الاجتماعية . وأول مظهر من مظاهر الدافع الاجتماعى — وهو يقوم على أسس بيولوجية — هو تعلق الطفل بالأم التى ترضعه . والدافع القوى الذى يحرك الإنسان منذ الطفولة هو التعلق بالأم والمحافظة عليها . فلا وجود مطلقاً لغريزة أولية تدفع بالمرء إلى الاعتداء والتدمير . فالغضب لدى الطفل ليس تعبيراً عن العدوان ولا يرمى إلى التدمير بل هو طلب النجدة ، هو احتجاج على ما قد يلاقيه الطفل من الإهمـــال . وإهمال الطفل عند ما ينتابه الخوف ويطلب النجدة يحدث فى نفسه صدمة عميقة .

المحرك الأول لسلوك الطفل هو الحب بأوسع معانيه وأعمقها — الحب المتميز عن الشهوة ، الحب الذى هو عطاء وهبة قبل أن يطلب التبادل — وعند ما يخشى الطفل الانفصال عن أمه فان القلق الذى يثيره التهديد بالانفصال ناشىء عن رفض الأم ما يقدمه الطفل بقدر ما هو ناتج عن امتناع الأم عن أن تهب طفلها ما ينتظره هو منها . واحتقار الأم لطبات طفلها يولد فى نفسه الإحساس بأنه رديء ، غير جدير بالحب وقد يصل هذا الشعور إلى أقصى درجاته فى حالات المرض السوداوى . فحرمان الطفل من تبادل الحب يؤدى إلى القلق والبغض والعدوان . وليس العدوان غريزة أولية كما يعتقد فرويد بل رد فعل للحرمان . كما أن الحاجة إلى السلطة والاستعلاء التى يعتبرها أدلر من المقومات الأساسية للطبيعة البشرية ليست سوى رد فعل أيضاً للحرمان . وقد يعترض على سوتى أن الفرق بينه وبين فرويد أو أدلر ليس بذى أهمية ، ما دام العدوان والبغض والرغبة فى التدمير من مظاهر السلوك الإنسانى . ولكن سوتى يرد على هذا الاعتراض قائلا إن الفرق وإن كان نظرياً فانه يؤدى إلى نتائج عمليـــة هامة تظهر فى نوع التربية التى يجب أن نختارها لتنشئة الطفل التنشئة الصالحـــة .

هذا فضلا عن النتيجة التى وصل إليها فرويد بأن البغض والعنف أمران لا يمكن تفاديهما ، وفضلا عما ذهب إليه أدلر فى أن الطفل يجب أن يرغم على الخضوع للنظام الاجتماعى ، كأن الطفل بطبعه شرير وأن تقويمه وتحوله إلى جانب الخير لا يمكن أن يتما إلا بتأثير الضغط الخارجى .

فالأم فى نظر سوتى تقوم بالدور الأول فى تنظيم المجتمع منذ نشأته ، والمجتمع الأول هو مجموعة الإخوة والأخوات ملتفة حول الأم ، لا تضافر الأنباء ضد الأب ومناهضته والقضاء عليه للاستئثار بالأم من الوجهة الجنسية كما يقول فرويد . ويقول سوتى إن جميع مظاهر النشاط الاجتماعى من فن وعلم ودين ترمى إلى استعادة حب الأم الذى فقد بعد الطفولة أو للتعويض عنه . فالحب هو المحرك الأول للحياة الإنسانية وجميع الانفعالات الأخرى تنشأ كرد فعل لما يصيب هذا الحب من تغيير أو فقدان . فالقلق ناشىء عن تهديد الحب ، والبغض عن إنكار الحب والغيرة هى الحب المعترض عليه ، واليأس هو الحب المرفوض ، والشعور بعدم استحقاق الحب يؤدى إلى الشعور بالإثم والخطيئة ، والحسرة ناشئة عن فقدان المحبوب والشفقة عن مشاهدة المحبوب وهو يتألم ، كأن الحب هو المعين الوحيد الذى تخرج منه جميع الانفعالات والعواطف ، حتى البغض الذى يقابل الحب تمام التقابل .

وما يهمنا فى موقف سوتى من الطبيعة البشرية أنه يعتقد أنه وصل بالاعتماد على تحليل عدد كبير من المرضى بالأمراض النفسية إلى أن الدافع الدفين الذى يحرك حياة المرء منذ ولادته هو الحب وحب الأم أولا وأن الدافع الاجتماعى مفطور فى الإنسان وأنه دافع إلى المصاحبة والتعاون والتعاطف ، أى أنه لا يوجد شىء فى طبيعة الإنسان الفطرية يتعارض مع تحقيق التفاهم والوئام بين أفراد المجتمع ويقوم حائلا دون الوصول إلى التكامل والقضاء على أساليب السيطرة والعدوان والتدمير .

يبدو لأول وهلة أن مذهب سوتى يتفق مع رأى روسو فى جودة الطبيعة البشرية الأصيلة ، غير أنه يختلف عنه فى الواقع من جهات شتى : فانه لا يدعو إلى العودة إلى حالة الطبيعة الأولى إذ أن هذه الحالة فى نظر سوتى ليست سوى خيال ووهم ، ثم لا يقول بأن مجرد التجمع تنشأ عنه أسباب إفساد الإنسان وشقائه ، ولكنه يؤمن بضرورة الحياة الاجتماعية — لا كضرورة خارجية مفروضة على الرغم من الطبيعة البشرية — بل كضرورة ملازمة للطبيعة البشرية وكصفة ذاتية لها .

وإذا كان يبدو أن المجتمع الحالى بقوانينه ونظمه يرمى فقط إلى صيانة نفسه ومقاومة كل محاولة اعتدائية يقوم بها الفرد ، فهذا لا يعنى أن هذا الوضع هو الوحيد وأنه لا يمكن إصلاح المجتمع بحيث يزيل دواعى العدوان — ما دام العدوان رد فعل للحرمان — ويكفل لجميع أفراده الأمن والسلام وجميع أسباب التوافق والتكامل .

وهذا الأمر الأخير هو ما بحثه رينرد وست Raynard West فى الكتابين اللذين ذكرنا . وهما الضمير والمجتمع — وعلم النفس ونظام العالم . يرى وست أن التكامل الاجتماعى ممكن — سواء بين أفراد الجماعة أو بين الجماعات فيما بينها ، أى فى المجال القومى والمجال الدولى .

ويتفق وست مع سوتى فى مهاجمة نظرية فرويد فى حتمية تغلب غريزة الموت على غريزة الحياة ولكنه يأخذ عليه تمذهب كل ما يتعلق بالطبيعة الإنسانية حول دافع واحد هو الحب . فانه يرى أن الطبيعة البشرية مزودة بغريزتين أوليتين : الغريزة الاجتماعية وغريزة إثبات الذات أو كما يسميها أيضاً غريزة الا عتداء وإن كانت هذه التسمية تعود بنا إلى ما يشبه غريزة الموت عند فرويد خاصة وأن وست يعتبر غريزة الاعتداء أولية . ولكنه يقرر فوق إثباته للغريزة الاجتماعية أن الصراع الذى يقوم بين الغريزتين ينتهى فى أغلب الأحيان بانتصار الغريزة الاجتماعية على غريزة الاعتداء ، وذلك لا فى الأشخاص الأسوياء فحسب ، بل أيضاً فى المصابين بأمراض نفسية .

يرى وست أن المجتمع فى وصفه الحالى قد نجح إلى حد ما فى التغلب على أساليب الاعتداء بين الأفراد باستخدام القانون تارة أو القوة تارة أخرى . ولكنه لم ينجح بعد فى التغلب على أساليب الاعتداء بين الجماعات . ولكن لكى يزداد نجاح المجتمع فى القضاء على الاعتداء الفردى لا بد من مواصلة البحث فى تفهم العلاقات الانفعالية بين غريزة الاعتداء والغريزة الاجتماعية فى كل إنسان ، وكذلك تحليل الاستجابات التى يثيرها فى نفسه هذا الصراع القديم ، كما أنه يجب أن نزداد فهماً لعوامل العدوان فى الفرد وشروط ضبطه ومراقبته لكى نقضى على العدوان الجمعى .

يجب إذن أن نعيد النظر فى الأسس التى نبنى عليها القوانين سواء القوانين القومية أو القوانين الدولية وذلك فى ضوء معرفة أعمق للطبيعة الإنسانية ولا شك فى أن مثل هذه الدراسات ستؤدى إلى نتيجة هامة وهى أن أوجه التقارب والتوحيد أكثر من أوجه الاختلاف والتفريق .

ويجب أن نذكر أن العلاج الوحيد لما تعانيه الإنسانية المريضة هو كما تقول هورنى مساعدتها على التخلص مما يبعث فيها القلق والخوف لا مساعدتها على تحرير النزعات الاعتدائية . ويمكنا أن نقول فى ضوء المنهج التكاملى أن التكامل الاجتماعى بين الأفراد والجماعات يجب أن يتم لا على الرغم من الآخرين فحسب ، بل بفضل الآخرين .

يوسف مراد

Résumé

LES FONDEMENTS PSYCHOLOGIQUES DE L'INTEGRATION SOCIALE.

Par

Youssef Mourad

Les trois étages du biologique, du psychologique et du social doivent toujours être pris en considération quand il s'agit de l'étude de n'importe quelle activité humaine. Il ne s'agit pas d'une superposition, mais d'une pénétration mutuelle et d'un concours convergent des trois ordres de facteurs. S'il ne peut y avoir de réduction d'un ordre à l'autre, il y a du moins dans l'ordre biologique comme une préformation de l'ordre psychosocial. S'il existe une démarcation nette entre l'ordre biologique et l'ordre psychologique — marquée par la fonction du langage articulé et par tout ce que cette fonction implique de conditions spécifiques, il n'existe pas par contre une démarcation nette entre le psychologique et le social et le fondement premier de toute organisation sociale demeure psychologique: le social ne crée pas le psychologique, mais sans lui rien du psychologique ne se développe, mais par contre regresse.

Après avoir défini l'intégration comme processus propre au seul vivant, l'auteur définit l'intégration telle qu'elle se réalise dans les trois domaines. Si l'étape terminale du processus intégratif est la même dans les trois ordres et si à chaque plan les mêmes lois de développement sont en jeu, les facteurs d'intégration sont nécessairement différents vu la nature différente des systèmes relativement isolés qui s'intègrent tout en se différenciant. Tout facteur d'intégration est facteur de constance, de permanance et d'harmonie: système nerveux et système circulatoire dans le domaine biologique;mémoire et conscience de soi dans le domaine psychologique; langage dans le domaine social. L'intégration est d'autant plus difficile à réaliser qu'on s'éloigne du biologique; elle devient polymorphe en quelque sorte dans le domaine social, mais il n'en demeure pas moins que sous ses différentes formes — dues à la multiplicité des milieux sociaux auxquels un individu appartient — il existe des caractères communs à toute intégration sociale. Tout d'abord elle exclue toute domination : particularisme outré, obstination aveugle, agression, asservissement; elle cherche à travers les différences à réaliser l'unité des buts et l'harmonie des moyens; une communauté de fins.

Le langage est facteur instrumental d'intégration, mais en raison de ce qu'il implique d'artificialité, il est souvent plus ou moins faussé. Il exige une critique et une analyse en profondeur pour que la pseudo-intégration qu'il réalise se transforme en une intégration véritable.

Mais d'aucuns, entre autres Freud, pensent que l'intégration véritable est impossible, et que le mobile fondamental de toute conduite sociale est l'agression que déclenche un sentiment de frustration. L'auteur expose les idées du père de la psychanalyse sur le rôle de la peur et du sentiment de culpabilité dans les relations entre individus et entre nations : la civilisation porte en elle-même les germes de sa destruction, le dernier mot restera à l'instinct de mort.

A ce pessimisme philosophique, on peut opposer les opinions d'autres psychanalystes tels que J. Suttie, K. Horney et R. West. Pour Suttie, c'est l'amour, capacité de don total, qui constitue le ressort premier de toute conduite sociale, ce sont les contingences du milieu social qui donneront naissance, à partir de l'amour, aux diverses émotions et sentiments qui se partagent l'âme humaine.

L'attitude de Suttie pèche par un excès contraire à celui de Freud. S'il est un seul et unique ressort du comportement social, il semble qu'il doive être ambivalent, mais pour R. West, il est de l'essence de l'instinct social de l'emporter sur l'agressivité, l'amour vaincra la haine.

L'expérience de Horney et de West justifie cet optimisme, mais si l'intégration sociale est possible, il reste à trouver les moyens de la réaliser. Le premier ennemi à combattre c'est la peur, une analyse de la motivation psychologique doit dépasser le plan individuel et faire la lumière dans les soubassements de la vie collective. La prise de conscience doit se réaliser sur le plan international par la découverte d'une fin commune qui transcende individus et nations sans asservir aucun des membres de la communauté à l'autre.